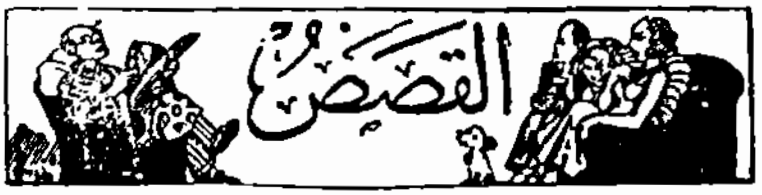

الحذاء المشئوم

للكاتبة الايطالية جرازيا دليدا

ضاقت سبل الحياة بالفتى إيليا كراى فهو لا يجد عملا ، وهو لا يدرى كيف يزجى هذا الفراغ المريض الذى وقع فيه على حين فجأة ، إلا أن يقضى شطرا من نهاره فى حجرة الانتظار بالمحكمة واضعاً كراسة على ركبته يثبت فيها ماتوافيه به قريحته من أشعار يناجى بها زوجته الحبيبة ، لقد كان الضجيج يعلو بإزائه ، والجوع تتقاطر من هنا ومن هناك : ففقيرات النساء يتخاصمن على دريهمات ضئيلة كأنما يتنازعن أقطار الأرض جميعا ، وشاهدو الزور يسيرون فى هدوء وأناة يتغنون شيئا ، وصغار المحامين يندفعون هنا وهنا يفتشون عن صيد جديد ؛ هذا وإيليا جالس فى هدوئه فى زاوية الحجرة ، يكتب إلى زوجته بعض الشعر وكأنه لا يحس مما حوله شيئا :

« أنا أستطيع أن أرى الحياة بعينى عقلى ، فكل ما يدور فى العالم مقدر قبل أن يكون . أنا شاعر فيلسوف ، فليس شئ فى الحياة يثير فى الدهشة لأننى أعلم أن الأيام تعلو بالمرء مرة وتسفل به أخرى . لا تقنطى – ياعزيزتى – فلربما تذكرنا عمى أغسطينو ، أغسطينو الذى طرد زوجته وحرمها ماله ؛ لعله يذكرنا يوما فنذهب إلى شاطئ البحر معا ، نشهد القوارب تضطرب بين الأمواج الهائجة ، ونحن نسير ذراعا فى ذراع كأننا عروسان فى شهر العسل ؛ على أننا – الآن – سعيدان ، فالحب والاطمئنان يغمران قلبينا وحياتنا ، وأنت ياسيدار ؛ أنت فينوس هرموزا ؛ أنت رائى وأنت ملكتى »

وفى صباح يوم من أيام الشتاء ، أحس إيليا وهو فى مكانه من حجرة الانتظار ، حيث يجلس دائما ؛ أحس أن يداً قوية تجذبه فى عنف ، وسمع صوتا خشناً يناديه : « أسرع ! لقد كنت فى (تيرانوفا) وعمك هناك يعالج مرضا خطرا ... » هذا صوت سائق ينبهه إلى أمر ، ولكنه ما كان ليسلبه بعض هدوئه . لقد أرسل أنة خفيفة خافتة ، ثم قال يحدث نفسه : « سأنشر هذا الخبر المحزن على عينى زوجتى »

لم تضطرب الزوجة لما سمعت ، ولم تحزن ، ولم تفزع من مكانها وهى جالسة أمام باب الدار تلتمس الدفء من أشعة الشمس ، وقد ارتدت خير ملابسها ، وانتعلت ، ورتبت شعرها فى دقة وأناقة ؛ غير أن ملابسها وحذاءها وقد عبثت بهما يد البلى ، ووجهها وقد شحب وتغضن وذوى جماله ، وعينيها وهما تضطربان وقد خبا ضوءهما وانطفأ بريقهما ؛ كانت كلها ترسم سطورا واضحة فى تاريخ فاقتها وعوزها

ومن أقصى المكان ارتفعت ضجة تشبه ما يسمعه إيليا دائما فى المحكمة : فهؤلاء أصحاب الدار يتنازعون فيما بينهم أمرا ؛ وهذا الندى — وهو جزء من الدار — قد ضم جماعة يلعبون الورق ويمزحون فى ضجة وصخب ؛ والزوجة لا يعنيها ما يدور حولها . أما هو — هو إيليا — الزوج العاشق فقد وقف بإزاء زوجته يداعب شعرها فى رفق وتحبب ويقول : « أفتعلمين ما أنا صانع ؟ سأذهب ... ! » قالت الزوجة : « إلى أين ... ؟ » قال : « إلى أين ؟ لعلك لم تعى شيئا مما قلت ! إلى عمى أغسطينو طبعاً ! ما أجمل ما أرى فى هذا اليوم ... ! » قالها وقد كتم فى نفسه أموراً استشعرتها الزوجة المسكينة فراحت تحدق فى حذائه الممزق مزقا أعيت على الإسكاف ، ثم قالت : « وأين لك بالمال تستعين به على السفر ؟ » قال الزوج فى ثبات : « إن معى ما يكفينى ، لا يشغلك هذا . إن كل ما فى الكون يلذ الحياة والجمال لو أن فى النفس الهدوء والدعة . إن ما يهم المرء حقا هو أن يحب الناس ويحسن معاملتهم . لقد شغلنى هذا كل ساعات الصباح ... أفتريدين أن تقرأى ؟ » ثم قطع قصاصة من دفتره وألقى بها فى حجرها وهو يبتسم ... ثم انطلق وما خلف من شئ سوى هذه القصاصة

انطلق ماشيا لأنه لا يملك سوى ثلاث ليرات ؛ وكانت فلسفته قد أوحت إليه ألا يتخبط بين هنا وهنا ، يقترض ، فيضيع وقته فيما لا غناء فيه ... هذا نوع من الرياضة تعوده منذ زمان ؛ وما كان لشئ ما أن ينزع عنه رزانته أو يحول بينه وبين أن يصل إلى عمه أغسطينو ، وهو رجل سيار . لقد سار فى

نشاط وخواطره معلقة بحذائه دون قدميه ، فهو يشفق عليه ويشفق ...

* * *

بلغ إيليا (أوروسى) — وهى قرية فى طريقه — ولم يحدث ما يعكر صفوه ؛ فالطريق ممهد لا حب ، والطبيعة جميلة تحنو عليه لتنسيه بعض متاعبه . لقد كانت رحلة ممتعة ، فى ناحية من الأرض سحرية ، فالشمس تتألق كأنها ماسة كبيرة ، وترسل أشعتها الذهبية فى رفق على صخور الجبل ، والحشائش تضطرب تحت نسمات البحر الرقيقة . وحين اندفع هو فى طريقه تراءت له الزهور الرفافة — زهور الربيع الجميلة — تنفث من عطرها الشذى فى روحه النشاط ، وتذكى فى أعصابه القوة ؛ ثم ... ثم انحدرت الشمس إلى مغربها ، فاستحالت حرارتها المنعشة إلى برد قارس تحمله نسمات الليل ؛ وأحس الرجل أن قدميه تتنديان ، وأن حذاءه قد انفرج عنهما من هنا ومن هنا ؛ فاضطرب وخانته رزانته الفلسفية حين بدا لعينيه أنه لا يستطيع أن يصلح حذاءه أو أن يجد غيره ؛ وأنه لا يقوى على أن يحمل هم الطريق وهم الحذاء الممزق معاً . وتمثل له ما يلاقيه من مهانة واحتقار حين يبدو فى دار عمه رث الملابس ، زرى الهيئة ، ممزق الحذاء ، وهو لا يريد أن يكون هو ألم نفسه وعار زوجته حين يلج دار عمه فى مثل حذائه . لا بد أن يجد حذاء ؛ ولكن كيف ؟ إنه هو لا يدرى ... وبعد فترة كان يسير فى شوارع القرية المهجورة المظلمة الندية وقد سيطرت عليه فكرة الحذاء الآخر . وفى ناحية من ساحة فندق هناك سعير يشع نوراً ذهبيا قويا جذب إيليا إليه ... جذبه لينام ليلته فى حجرة قذرة ، حيث ينام عاملان فقيران ؛ وقد كان غطيط أحدهما يستلب إيليا من أفكاره ومن نومه معا . استلقى الرجل على فراشه وما فى رأسه غير صورة نعل جديد تتراءى له أينما هفا خياله . فى الشارع ، فى الحقل ، فى زاوية الحجرة ، فى صندوق فى الزاوية الأخرى ، ثم هناك عند الباب وكانت تحور أحيانا إلى أخرى بالية تنم عن الفقر والفاقة .

وظل إيليا تفزعه الريح العاصفة ، والغطيط الدوى فى أرجاء الحجرة ؛ والساعات تمر ، وتعلق بصره بنجم يتألق فى السماء كأنه يسبح بين أمواج البحر المضطربة ؛ وخياله عند زوجته وهو جالس إليها ينشر على عينيها بعض أشعاره الرقيقة الطلية ، وعند الحياة الناعمة التى يحياها إلى جانبها لو ظفر بما يملك عمه

وانتفض الرجل من فراشه بعد لأى وهو يضطرب ، وانحنى على حذاء العامل يريد أن يسلبه فوجده ثقيلا واسعا فتركه إلى حذاء الرجل الآخر ، غير أنه لم يجد شيئا ، وطن فى مسمعيه صوت أقدام تدب خارج الحجرة فاضطرب ووقف فى مكانه وقد سيطر عليه الحزن والفزع ؛ وبدت له خسته فحزن ... حزن حزن القلب يستشعر الخطر المحدق ؛ وحين انحنى الصوت دلف هو إلى الخارج ليرى ... ليرى الردهة خالية إلا من بصيص من نور ، وإلا من قطة تحك جسمها فى الجدار ، وإلا من حذاء بإزاء القطة ، بدا فى عينى الرجل جميلا ، فانطلق إليه يخبئه فى ثنايا معطفه ، ثم اندفع إلى الشارع فى هدأة الليل وسكونه . ولقد غادر الفندق لم يشعر به أحد ، ثم أسرع وتراءى له وهو يسير على شاطئ البحر كأن كواكب السماء تتساقط رويدا رويدا لتغتمر فى هذه اللجة ، فقال : « يا عجبا ! أكل شئ فى الطبيعة والإنسان يريد أن ينهد ؟ » وظل يحدث نفسه هذا الحديث وهو يخب فى الظلام بين الصخور المظلمة والبحر الداكن

ومضت نصف ساعة جلس بعدها ليلبس الحذاء المسروق ، لقد بدا عليه السرور والفرح — بادئ الأمر — غير أنه ما لبث أن استشعر الحسرة تفجؤه وتكاد تعصف به ، فراح يحدث نفسه « ماذا يكون لو أنهم تبعونى ؟ سيقتلوننى لاشك ، ماذا تقول زوجتى إذن ؟ ستقول : ماذا صنعت يا إيليا ؟ أتسرق حذاء ؟ أى فرق بينك وبين من يسرق مليون ليرة ، أيها السارق ؟

واضطربت الفكرة فى رأسه : « مليون ليرة ! أين هى ؟ أين أجدها لو وجدتها لا ختطفتها لا أنى ولا أتباطأ ! » ثم تمطى وهو يبسم لهذه الخاطرة ، ومد رجليه وحرك أصابعه فى الحذاء الجديد ؛ يا عجبا ! لقد رانت على نفسه سحابة سوداء من الكآبة مرة أخرى ، وشعر بقدميه تتقدان ، وبأصابعه تختلج كأنها تنفر من هذا الحذاء المسروق ! لقد سار فى طريقه متكاسلا ، ومتأبطا حذاءه ليستطيع أن يلبسه إذا تبعه أحد ؛ ثم اضطرب وتوزعته الأفكار السود ؛ فهو يلتفت إلى وراء بين الفينة والفينة ليرى من عساه يتبعه

وانبثق الفجر كأنه شيطان مارد يحدجه بعينين فيهما البغض والازدراء ؛ يطل عليه وقد قنعته سحابة دكناء من الضباب ليبعث فى نفسه الفزع والرعب ، ولينذر بالفضيحة والويل ؛ وهؤلاء الناس — عما قريب — ينسلون إلى القرية مارين به ، وحين يسمعون قصة الحذاء المسروق يقول قائلهم ، : « نعم ، لقد رأينا رجلا هناك يسير مضطربا ، وقد تأبط حزمة يخبئها تحت معطفه ... »

ورأى — وهو يسير — فلاحا يسير الهوينى ، فى طريقه إلى القرية ، فخيل إليه أنه يحدق فيه ، ويلتفت إليه بين الحين والحين وعلى شفتيه ابتسامة السخرية والتهكم

ثم ... ثم انحسر الظلام عن نهار حزين كالح ؛ وقد نشرت السحب ذوائب طويلة سوداء تصل بين الجبل الشاهق والبحر المضطرب ؛ والغربان تمر به وهى تنعق نعيقها المشؤوم ؛ وقد انطوى الجمال الذى أحسه بالأمس فى هذه الناحية ؛ وبدت له الحياة عابسة تبعث فى النفس الألم والضيق ، ودوت فى أذنيه أصوات تفزعه من مكانه لأنه رأى فيها أصوات الذين من خلفه يقصون أثره ويسخرون منه ؛ فاستبدل حذاءه القديم المزق بالحذاء الذى سرقه ، وألقى به فى ناحية ثم انطلق

لقد ألقى بعض همه حين ألقى الحذاء المسروق ، ولكنه ما يزال فى اضطرابه ، وخياله ما يفتأ يصور له أشياء ! فهذان العاملان اللذان قضى معهما ليلته ، على أثره يطلبانه بعد أن وجدا الحذاء الملقى ... سيلبيانه ثم يدفعان به إلى المحكمة ، وهناك ... وهناك ... ؛ وتراءى له جماعة يعذبونه ويعذبونه حتى يعترف ...

ماذا تقول زوجته حين يترامى الخبر ؟ وتأججت الفكرة برأسه يؤرثها الإجهاد والبرد والجوع ، فانطرح تتنازعه الخواطر المظلمة كما تتناول الرياح الشديدة العاصفة سحابة فى كبد السماء ؛ ورجع إلى نفسه يلومها على أن طوحت به الأيام فى هذه المتاهة ، يضرب فى الأرض ، ويفقد الراحة والطمأنينة فى وقت معاً ؛ ثم هو لا يطلب إلا سرابا أو أملا كالسراب ، ومن يدرى ؟ لعله لا يستطيع أن يأتى بالحجة القاطعة يثبت بها أن أغسطينو هو عمه ... وبرغم هذا فهو قد ألصق بنفسه عاراً لا يغسل

نكص الرجل على عقبيه ممتلخ العقل ، مأخوذ اللب ، يحدق فى الحذاء الملقى فى ذهول وبلاهة ، أفيواريه التراب ؟ إنه إن فعل فما غير من الحقيقة التى فى رأسه ! أن هذا الحذاء مسروق ، وأنه هو السارق ...

وتردد إيليا حيناً ، ثم هوى إلى الحذاء يخفيه تحت طيات معطفه ، وارتد إلى القرية لا يستطيع أن يهبطها إلا أن يسدل الليل أستاره ، لقد غبر يوماً كاملا لا يطعم شيئا ، فأحس بأعصابه تتراخى ومشى الهوينى يترنح كأنه عود ذاو تعصف به الرياح الهوج ، وولج الفندق ثانية وكأنه فى حلم ، وعلى شفتيه كلمة الاعتراف ؛ غير أنه وجد المكان هادئاً كأن شيئاً ذا بال لم يكن ، ومر فما تعلق به بصر ، ولم تحم حوله شبهة ؛ فتناول طعامه ، ووضع الحذاء مكانه الأول ، ثم ألقى بنفسه فى لجة من النوم العميق الهادئ ، فما استيقظ إلا عند ظهر اليوم التالى . وحين هم من مرقده اشترى رغيفاً بما بقى معه من مال ثم سار ...

وبدا الجو فى ناظرى إيليا — مرة أخرى — جميلا ، والوادى كأنه يبسم فى رقة وظرف ، والنبات الأخضر تنبعث منه القوة والنشوة ، وهو يندفع فى سيره يفور نشاطاً وحياة على رغم هذا الحذاء المزق الذى تموج فيه قدماه ، وهو — هو هذا الحذاء — كان يوقظ الرحمة والشفقة فى قلوب الذين يرونه فيمنحونه بعض الخبز واللبن يتبلغ بهما

وبلغ دار عمه وقد أجهده السير وأضناه التعب ، ولكن الأمل كان يشرق فى عينيه فيدفعه إلى الأمام ... لقد مات عمه منذ ساعات قليلة ، وراحت الخادم تنظر إليه فى دهشة وهى تعجب : « أأنت ابن أخيه حقا ؟ لماذا لم تسرع إلى هنا ؟ » ولكنه وقف صامتاً ، فاندفعت هى تقول : « لقد أرسل إليك منذ ثلاثة أيام وانتظر . . . انتظر طويلا وهو يذكرك ، ثم بدا له أنك نسيته ففقد الأمل . وحين أحس بالموت يكاد يقصم عوده أوصى بكل ما يملك إلى اليتامى من أبناء البحارة » ...

فارتد إيليا إلى داره يحمل إلى زوجته الحبيبة إلى نفسه خيبة الرجاء وضيعة الأمل وهو لا يستطيع أن يقول شيئا ...

ك . م

***

وحي الرسالة

فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع

المجلد الأول
الثمن ٤٠ قرشاً

المجلد الثاني
الثمن ٤٠ قرشاً

المجلد الثالث
الثمن ٤٠ قرشاً

للأستاذ أحمد حسن الزيات

طبعت طبعا أنيقا على ورق صقيل ، وقد بلغت عدد صفحات كل منها خمسمائة صفحة ونيفا
وهي تطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكتبات وثمن كل مجلد أربعون قرشاً عدا أجرة البريد

مطبعة الرسالة